د.بومدين كروم
كليةالآداب والعلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
– جامعة تلمسان –

السِّلم من منظور إسلامي

الملخص لقد حاولت المداخلة إضاءة موقف الإسلام من ثنائية السلم و الحرب، و قد تبيّن من خلال نصوص القرآن الكريم و الحديث النبوي أنُ كفة السلم بما يثمر من خير راجحة على كفَّة الحرب التي لا تثمر إلا شراً.. فالسلم و الأمن قاعدة و أصل، و ما شرع من قوانين، و سنن من نظم، و ما رخص من جهاد، إنما هو للحفاظ على هذه القاعدة و ضمان استمرارها.

(1) إن ما ينبغي الإشارة إليه بداية هو أن سُننيَّة الكون، سواء في وجهه الظاهر (الطبيعة) أو وجهه الخفي (ما وراء الطبيعة)، قائمةٌ على ثنائيات ضدية، من مثل: النور والظلمة، والحركة والثبات، والصحة والمرض، والحياة والموت، والسلم والحرب، والثواب والعقاب، والجنة والنار، وغيرها، وذلك سرٌّ من أسرار البارئ تعالى في تدبيره شؤونَ خلقه.

(2)ثم إن ثنائية: (السِّلم \ الحرب) وهي الوجه الآخر المثمر للثنائية (الحياة\ الموت) حاضرة في نصوص الوحي، قرآناً وسنة؛ هي حاضرة بمعنى السِّلم أو ما يحققه وينمو في أجوائه من المعاني اللطيفة والعظيمة، كمعاني العفو والصفح، والعدل والإصلاح، والمحبة والغفران، كما أنها حافلة كذلك بمعنى الحرب، وما تؤدِّي إليه من نتائج وخيمة، وتثمره من فساد في الأرض؛ كمعاني: القتل والإهلاك، والبغي والظلم، والعدوان والطغيان، غير أن ما نلاحظه أن معنى السِّلم في عمومه أكثر ورودا، وأقوى حضورا، مما

يؤكد أن السِّلم في الإسلام غاية مقصودة، وثمرة لنظام تربوي توجيهي، بستهدف صياغة العالم الإنساني وفق تصور شامل، متوازن ومتسق مع طبيعة الإنسان، ومهمته في الحياة؛ فهو مجال يُدعى المسلمون إلى دخوله جميعا: ﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافة، ولا تتَّبِعوا خُطوات الشيطان، إنه لكم عدوٌّ مُبين**﴾[1]،وهو لقيمته تسمَّى الله تعالى به، فمن أسمائه: "السَّلام"، وهو فعل يمارسه المسلمون في ما بينهم، فتحيتهم "سلام" في الدنيا وفي الآخرة، ومنه اشتُقَّ لفظ مسلم. فـ"المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده"[2]. واشتُقَّ منه "الإسلام"، الذي جعله الله تعالى الدين القويم لعباده، لا يقبل منهم دينا غيرَه ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾ وقال تعالى: ﴿**ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يُقبَل منه وهو في الآخرة من الخاسرين**﴾[3]

ومن هنا، يمكن القول، إن السِّلم في الإسلام أصل، وأما الحرب فليست إلا وسيلةً لتحقيقه

وحمايته؛ فهو يؤثر السِّلم ويحققه، وينبذ الحرب، ويسارع إلى إطفاء نارها ﴿**كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله**﴾[4]، كما يسارع إلى إخماد نار الفتن، بالإصلاح بين المتقاتلين، بما يتوجبه ذلك الإصلاح من عدل وقسط، يمحو الأحقاد، ويزيل الضغائن، لأن الأخوة الإنسانية لا تتحقق إلا في الأجواء النظيفة والقلوب السليمة؛ قال تعالى:

﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا، إن الله يحب المقسطين، إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخَويكم، واتقوا الله لعلكم تُرحَمون**﴾[5]

وجعل الأمن، وهو ظل الإسلام النَّدِي، ثمرة العبودية لله وحده، قال تعالى: ﴿ **لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**﴾[6]

وقال جل جلاله:

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونني لا يُشركون بي شَيَئاً﴾[7]

إنّ المتأمل في الإسلام، في أبعاده التربوية والتشريعية يجده يستهدف بناء إنسان جديد، إنسانٍ صالح، قادر على الانسجام الإيجابي مع مُجتمعِه والعالم الإنساني بشكل عام.

فهو يرسِّخ في الفرد والجماعة قيم الفضيلة، ويحارب مظاهر الفساد والرذيلة، ويهيء أجواء السلام للإنسان مع نفسِه، ومع أفراد مُجتَمَعِه، وكذا الإنسانِ في العالم من حولِه.[8]

فالإسلام يُرسي دعائِم السِّلم في ضمير الفرد، وفي الأسرة, وفي المجتمع، ثم في العالم الإنساني، وفق نظرة واقعية، وخطة شاملة، تمكّن للسَّلام وتبني صرحَه بناءً صحيحاً؛ فكل ما جاء في الإسلام من أوامر ونواه، يصب في هذا المصب، ويخدم هذا المعنى، ويؤسس له؛ فهو لم يأمر إلا بما فيه نفع للفرد في ذاته، وفي علاقاته الاجتماعية والإنسانية، ولم ينه إلا عمَّا هو مُضِر للفرد في ذاته، وبِمجتمعِه والإنسانية جمعاء؛ فقد حرَّم ما ينتُج عنه ظلم للنفس الفردية، أو الآخر؛ والظلم منهيٌّ عنه مبدئيا لأنه من نواقض السلام.

جاء في الحديث القُدسي:

« يا عبادي إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكُم مُحرَّماً فلا تظالموا »[9]،

وقال عليه الصلاة والسلام: « **الظلم ظلمات يوم القيامة**»[10]، وقال: «**اتقوا دعوة المظلومِ وإن كان كافرا، فإنها ليس دونها حجاب**»[11].

- **أسباب الظلم ودوافعه:**

لقد رسم القرآن الكريم صورا لنماذج بشرية متعددة عكست معنى الاستكبار المُفضي إلى الظلم والطغيان.

1. صورة فرعون أو إغراء السلطة: الذي أُغري بسلطة القوة، وسكر بنشوة المُلك، فعَدَل عن القسط إلى الظُّلم، وعن بسط الأمن إلى التخويف والترهيب، وعن حفظ الحرّيات إلى الاستبداد والاستعباد، بل ذهب إلى أكثر من ذلك فادّعى ما ليس له، ولا من استطاعته، عندما صرَّح بقوله: ﴿ **وقال فرعون، يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري** ﴾[13].

2. صورة إبليس (الشيطان) أو المفاضلة الخَلقيَّة: إنها تعكِس الدافع إلى الظلم بحجة اعتقاد الخيرية الخَلقية أو العنصرية ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجُدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين**﴾[13]

﴿ **قال ما منعك ألاَّ تسجُد إذ أمرتُك، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقتَهُ من طين** ﴾[14]

3. صورة قارون (المفاضلة العَرضيَّة): قال الله تعالى:

﴿**إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، إذ قال له قومه لا تفرح، إن الله لا يحب الفَرحين، وابتغِ فيما آتاك الله الدار الآخرة، ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسِن كما أحسن الله إليك، ولا تبغِ الفساد في الأرض، إن الله لا يُحِب المفسدين، قال إنما أوتيتهُ عن عِلمٍ عندي**﴾[15]

إنها صورة تعكِس الإحساس بنشوة المال، وسوء توجيهه، وجَعله أداة بغي، وصرفه عن كونه أداة اقتصاد نافع لصاحبه ولقومه.

4. صورة ابني آدم وإخوة يوسف:[16]

وهي تعكس صورة القلب المريض، الغافل القاسي، الذي لا يرى حرجا في إلغاء الآخر، لا لشيء إلا لأنه أوتي خيرا لم يؤته، فهو يزيحه ليحتل مكانه, إنه مرض الحسد والغيرة ,وهو مرض ظالم وقاتل.

5. صورة امرأة العزيز:[17]

صورة تعكس استيلاء قوة الشهوة على قلب صاحبها وجوارحه ودفعه إلى إشباع رغبته ولو بإلحاق الأذى بغيره.

إن هذه الصور وغيرها، وإن لم تتكرر في تاريخ الإنسانية بأعيانها، فإنها تكررت فعلاً وممارسة، وتسببت في كوارث اجتماعية حرمت الإنسانية في أجوائها الإحساس بالطمأنينة والسلام.

● **الإسلام وسلام الآخر:**

الآخر، في منظور الإسلام نوعان: إنسان مسالم محايد، وإنسان مكابر مُعادٍ، غير أن نظرته المبدئية إليه نظرة نوعية؛ فهو خليفة الله في الأرض، ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾[18]

- وهو كائن مُكرَّمٌ لإنسانيته، ومكانته. ﴿ **ولقد كرَّمنا بني آدم** ﴾[19]

- وهو حر لا ينبغي استعباده أو إكراهه على أمر معيَّن.

« **متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا** »[20]

- والإسلام يوجه أتباعه إلى أن طبيعة التعامل مع الإنسان المحايد ينبغي أن تكون بالبر والحسنى، والعدل والرحمة، وأن دعوته إلى الحق تقوم على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ **ادعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن** ﴾[21]

- ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبَرُّوهم وتقسطوا إليهم** ﴾[22]

ذلك أن الأصل في خلق الشعوب المختلفة هو التعارف والتعاون، لا التنافر والتناطح، وأن مقياس التفاضل بينهم هو التقوى.

قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾[23]

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: « **الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلاَّ بالتقوى** »

– وأما الإنسان المعادي المُؤَدلج، فقد وقف الإسلام في طريقة التّعامل معه موقفا حازما صارما، وهو مقسَّم إلى: كافر ومشرك ومنافق، وهم يمثلون الأيديولوجيّة المعارضة للإسلام معارضة عنيفة، بإعلانهم الحرب عليه وعلى أنصاره، وقد سَنَّ الإسلام وسيلة لمجابهتهم هي وسيلة الجهاد في سبيل الله.

● **الجهاد في سبيل الله وسيلة حماية ودفاع:**

لقد شرع الإسلام الجهاد وسيلة لحماية الدعوة، والدفاع عن مكاسبها وأنصارها، كما شرعه بهدف تحرير الإنسان مطلقا من كل قيد يحول دون وصوله إلى الحقيقة أو وصولها إليه. ومن هنا كانت دعوته إلى التأهب، وإعداد العدة الرادعة، ذلك أن السلام مع الآخر المناوئ والمتربص لا يمكن أن يُبرم إلا من موقع القوة المتفوقة أو المتكافئة، وإلاَّ عُدَّ استسلاما مهينا.

قال تعالى: ﴿ **وإن جنحوا للسَّلمِ فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** ﴾[26]

﴿ **فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلَون** ﴾[27]

﴿ **وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قوة، ومن رباط الخيل، تُرهِبون به عدو الله وعدوَّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم** ﴾[28]

وإذاً، فالسِّلم مبدأ في الإسلام وغاية، يحققه ويحميه لما يزدهر في أجوائه من قيم إنسانية هادية، وثمار حضارية نافعة.

الهوامش:

(1) سورة البقرة، الآية: 208.

(2) حديث متفق عليه.

(3) سورة آل عمران، الآيتان: 19 و84.

(4) سورة المائدة، الآية:66.

(5) سورة الحجرات، الآيتان: 9 و10.

(6) سورة قريش، الآيات: 1-5.

(7) سورة النور،الآية:53.

(8) للتوسع، ينظر كتاب: السلام العالمي والإسلام للمرحوم سيِّد قطب: 13 وما بعدها.

(9) رواه مسلم.

(10) حديث متفق عليه.

(11) حديث صحيح أورده السيوطي في الجامع الصغير1: 24، تحت رقم: 150.

(12) سورة القصص، الآية: 38.

(13) سورة البقرة،الآية: 33.

(14) سورة الأعراف، الآية: 12.

(15) سورة القصص، الآية: 38.

(16) سورة المائدة، الآيتان: 29 و30، وسورة يوسف، الآيتان: 7و8.

(17) سورة يوسف، 23-34.

(18) سورة البقرة: 29.

(19) سورة الإسراء: 70.

(20) وهي كلمة مشهورة مأثورة عن الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(21) سورة النحل: 125.

(22) سورة الممتحنة:8.

(23) سورة الحجرات: 13.

(24) رواه:

(25) سورة الأنفال: 61.

(26) سورة محمد: 35.

(27) سورة الأنفال:60.